الدور السفسطائي في شق مفهوم التصور
مقياس التصور السفسطائي: من مقياس الوجود إلي مقياس الإنسان

بن بوحة أحمد
جامعة سيدي بلعباس

لقد اتجهت الفلسفة اليونانية القديمة من طاليس إلى غاية زينون الإيلي إلى **دراسة الطبيعة** و التأمل في ظواهرها المختلفة ، و كانت كل هذه الدراسات تصبو إلى إنشاء المبدأ العام أو الجوهر الذي يؤسس التصور أو المعرفة عن الموجودات أو العلْم بالوجود بما هو موجود كما قصده كما قصده أرسطو في كتاب الطبيعة أو الميتافيزيقا ، بمعنى أن منطق هذه الفلسفات كان متجها إلى العالَم الخارجي قصد بناء القانون أو التصور الكلي الذي يفسر هذا العالَم و يشرح جوهره و أَعْرَاضِه.

و من الملاحظ على كل تلك الفلسفات أنها سجّلت تباينا في تفسيراتها أو بالأحرى اختلافا في نظرياتها ، هذا بالرغم من أنها كانت كلّها متجهة نحو موضوع واحد ، هو موضوع العلْم و الفلسفة آنذاك ألا و هو موضوع **الوجود أو الطبيعة** فخلاصة هذه الملاحظة إذن هي: أن الموضوع واحد و لكن التفسيرات جاءت مختلفة ، الأمر الذي أفرز تساؤلا آنذاك ، تساؤل نقدي يندرج في إطار نظرية معرفية جديدة تكاد تكون ثورية في الفكر الفلسفي القديم خاصة عند اليونان و هو : ألا يمكن تبرير أو ردّ

هذا الاختلاف في مضمون و مبادئ نظريات العلْم و المعرفة إلى عامل ذاتي و هو الإنسان أي الإنسان الباحث عموما ؟ خاصة و أن موضوع العلْم هذا و موضوع الفلسفة عموما هو واحد لا يتغير؟

إن مثل هذا التساؤل أوجب إجراء إعادة نظر في وسائل المعرفة و شقَّ الطريق نحو فكر إبستمولوجي نقدي بالمقارنة مع الفلسفات النقدية الموجودة في ذلك الوقت ،أي بسْط الطريق حول إعادة النظر في أدوات التفكير، بل في الفكر نفسه، أو بالأحرى في الإنسان المفكّر باعتباره صانع المعرفة و محورها.

لقد كانت العودة إلى الإنسان ضرورة ملحة تقتضيها مرحلة تطور المعارف و المناهج المعرفية معا ، عودة ممحصة لدور ذات الإنسان المُقرِّرة و المبتكرة للتصورات ، و في هذا المنحى تكون الفلسفة اليونانية فعْلا قد رسمت منعطفا هاما له أثره الكبير في نسيج المذاهب و الاتجاهات الفلسفية اللاحقة، خاصة على مذهب سقراط و أفلاطون و أرسطو .

مثّلت هذه المرحلة بداية للتأسيس إلى موقف شكّي ريبي يتمحور حول " مشروعية المعرفة أو بالضبط حول مشروعية الإدراك الحسي ، فإذا كان الوجود ساكنا، و إدراك الحركة وهْمًا أو إذا كان كل شيء- من ناحية أخرى – يتغيّر تغيرا مستمرا ، و ليس ثمة مبدأ حقيقي للاستقرار أو الثبات ، فإن إدراكنا الحسي لا يوثق به "[1].

إنها بداية النزعة الشكية النقدية في الفلسفة اليونانية المعروفة بالسفسطائية* (خاصة في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد) و التي تميزت بالانتقال من دراسة عالَم المحسوسات إلى الاهتمام بذات الإنسان العارِفة و بذلك تكون السفسطائية صَنَعت نقلة نوعية في نظرية المعرفة اليونانية بحيث فَصَلت بين الذات المُدرِكة(الإنسان) و الموضوع المُدرَك (الوجود).

لقد كان لميلاد السفسطائية ظروفا و تطورات تاريخية ذات خصوصية اقتصاديةو سياسية ،إذ ابرمت أثينا معادة سلام مع الفرس و هدنة مع الإسبرطيين ، ثم زادت ثرواتها بفعل قوة أسطولها البحري الذي ساعدها على الهيمنة على العالَم الإغريقي ، و بفعل توسع تجارتها و زيادة ثرواتها ، فالديمقراطية من جهة (حرية التعبير) و تكدس الثروات (توسع إمبريالي هائل علة مستوى الأموال) أفرزا جوّا اجتماعيا و حضاريا جديدا يتميز بالتنافسية عبْر مؤسسات الدولة ، خاصة في مجالس المحاكم و مجالس الدولة التي كانت ساحة لنقاش المشكلات الاجتماعية و الاقتصادية و فك المنازعات بين المواطنين ، مما نتج عنه ميلاد روح و عقلية جديدة لدى الإغريق تَميّزت بقوة الخطاب و غزارة الجدل و خصوبته سواء في المستوى القضائي أو على الساحات السياسية و الشعبية ، و من هُنا كان ميلاد الخطابة و أساليب البيان بمعناها الصحيح التي كانت تهدف إلى استمالة رأي الجماهير في المحاكم أو في مجال الدعاية السياسية ، و كان أيضا سببا في توجه مثقفي و شباب أثينا نحو هذا النوع من التفكير الذي يميل إلى البحث في الجدل و تعلّم البيان اللغوي و فن الخطابة [2].

و على هذا النحو، يُجمع مؤرخو الفلسفة على أن السفسطائيين هُم الواضعون الحقيقيون لعلم الخطابة ، حيث كان اهتمامهم مُنْصَبًّا على علم البيان و الخطابة و لكن – بالمقابل- كانت معرفتهم بالعلوم الأخرى ظاهرية و سطحية و كان غرضهم من تعلّمها تكتيكيا منهجيا يقصد إلى توظيفها داخل الخطابة لزيادة قوة البيان و قوة الحجاج.

يقصد السفسطائي في قياسه خمسة مقاصد:" إما أن يُبكت المخاطَب و إما أن يلزمه شنعة و أمرا هو في المشهور كاذب ، و إما أن يشكّكه ، و إما أن يُصيّره بحيث يأتي الكلام مستحيل المفهوم ، و إما أن يصيره إلى أن يأتي بمذر من القول يلزم عنه مستحيل في المفهوم بحسب الظن ، إذن فمقاصده مقصود ذاتي ، و هي القضايا التي بذاتها تقتضي المغالة ، و هي التبكيت ، و مقصد يقتضي المغالطة بالعَرَض ، و هي الأمور الخارجة عن التبكت ، و هو المقصود الأربع التالية للتبكيت و كذلك فإن تلك الأغراض الخمسة التي هي الذاتي و العرض و هي التي يؤمها السفسطائيون ، و أشهر هذه الأغراض الخمسة إليهم و أكثرها مقصودا عندهم هي التبكيت ، ثم يتلو ذلك التشنيع على المخاطَب ، ثم يتلو ذلك التشكيك ، ثم ينقلوا ذلك استغلاق الكلام و استحالته ، ثم يتلو ذلك شوقه إلى المذر و التكلم بالهذيان " [3].

لقد اتجهت التربية اليونانية زمن السفسطائية إلى العمل على تكوين الناحية الصورية للإنسان ، فتحوّل طلب الحقيقة إلى مطلب ثانوي ، و تحوّل الهدف إلى النبوغ في أساليب الكلام و الألفاظ و الدلالات و البحث في أنواع القضايا و أشْكالها و أدوات البرهنة و (طرق المغالطة و هذا حسب منتقديهم) و على هذا تَشَكّل النزاع

بين العقول و الناس ، و أصبح لكل إنسان حقيقة، بل إن الإنسان وحده هو الحقيقة ، و لا أمل في الحواس لأنها متغيرة و أحكامها متباينة [4] .

لقد دخلت مرحلة الفكر السفسطائي بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد و هي مرحلة جديدة بمثابة الثورة في تغيير القيم العلمية و الأخلاقية و السياسية ، حيث أصبح صوت السفسطائي منتشرا عبْر المدن حيث كانوا يُعلّمون الشباب فن الخطابة مقابل المال و في هذا مخالفة لقيم الأثينيين ، فتحوّل العلْم عندهم إلى حرفة و صنعة و هزئوا من العقل ، فكانوا مُعَلّمين و خطباء، و لو يكونوا حُكماء و من أشهرهم بروتاغوراس Protagoras و جورجياس Gorgias [5].

تجدر الإشارة إلى أن سقراط كان من معاصري السفسطائية ، و كان من الأوائل الذي تصدوا إلى منطقهم و تصوراتهم و أساليبهم الحجاجية و الخطابية بالرغم من أنّه اتفق معهم في أن الإنسان هو معيار المعرفة و محورها ، لكن ليس بالصيغ التي اعتمدتها السفسطائية حول طبيعة المعرفة و مواصفاتها، فالسفسطائية تقول بنسبية المعرفة و أن المعرفة شخصية فردية تخص كل إنسان على حدى ، بينما سقراط يقول فقط بإمكانية حصول المعرفة الموحدة و الكلية التي تصدر عنها التصورات الكلية الجامعة و سبيل تحقيقها هو التزام قواعد التعريف ، إذْ كان ضبط التصورات لأجل طلب الحقيقة و ضبطها في مذهب سقراط ، و نفسها الفكرة ذهب إليها أفلاطون تلميذ سقراط الذي دافع على إمكانية المعرفة عبْر **التصور الكلي في نظرية المُثل** التي تعبّر عن مذهب أطروحته التي دافع من خلالها على إمكانية

العقل الإنساني في إدراك الحقيقة الثابتة أو التصور الكلي الموحَّد على عكس السفسطائية القائلة بالمعرفة النسبية و التصورات المتبدّلة.

لقد دافع **بروتاغوراس** Protagoras (490-420 ق.م.) من خلال خطاباته على بناء التصور الذي يعود في تعريفه و معناه إلى مواضعات لغوية و مفاهيمية تخصّ الإنسان ذاته لا غيْر ، و بما أن الطابع السفسطائي يتميز كعادته بالغموض ، أو الازدواجية ، فإن ثمة سؤال وجيهٌ يُطرح على السفسطائي نفسه و هو :

مَنْ هو " **الإنسان** " المقصود عند السفسطائية ؟ هل هو الإنسان الفرد أي التصور المشخص أمْ الإنسان النوع و الجماعة ؟

فإذا كان المقصود بذلك الإنسان النوع ، يتحول التصور عند السفسطائي إلى معنى ذي طابع مشترك لدى الجميع ، و في هذا يكون التعارض مع مذهبهم القائل بتغير التصورات و المفاهيم ، لكن يبدو أن التفسير الغالب لهذه المسألة هو أن الإنسان المقصود من ذلك هو الشخص الفرد الواحد [6] ، و هو ما ينسجم تماما مع المذهب السفسطائي ، و بذلك تكون دلالة المعرفة و التصورات متغيرة لا تقف إلى تعريف واحد أو حدّ= terme متقف عليه. كما تجدر الإشارة هنا إلى الدور الكبير الذي لعبه **بروتاغوراس** في رسم معالِم البلاغة في مجال الخطابة و مدى تأثيرها على الجماهير بل حتى على النخبة الإغريقية و منها سقراط و اتباعه ، الأمر الذي قد يوحي بأثر هذا الفكر و علاقته بمحنة سقراط الأخيرة من حياته.

إن التصور النسبي هو نتاج ما اعتبره **بروتاغوراس** في نزعته المذهبية التي ترى في الإنسان الفرد مقياسا الأشياء جميعا، مقياس وجود ما يوجد منها و مقياس وجود ما لا يوجد[7] ، فإذا كان الفلاسفة الطبيعيون يهتمون بالعالَم الخارجي الحسي إلا أن **بروتاغوراس** يضع الإنسان في مقابل هذا الوجود و الطبيعة.

في مسألة الدفاع عن **التصورات المتغيرة** يذهب **بروتاغوراس** إلى إعطاء مثال و هو ما يُشْبه التبرير و ذلك من خلال مقاربة في مسألة ثبات التصور أو المفهوم الرياضي ، حيث يُعلّل ثبات التصور الرياضي و اتفاق جميع العقول حوله مثل الاتفاق حول المواضعات في مجال التصورات الهندسية ، و يبرر **بروتاغوراس هذا بقوله** : هو أنها لا تَمْلك وجودا حقيقيا في عالَم الحس، فهي تصورات وهْمية لا غيْر ، فالتصورات تَمْلك دلالات و معاني مشتركة إذا خرجت و ابتعدت عن عالَم الحس ، و بهذا نُسِّجل أيضا نقطة في غاية الأهمية و هي أن التصور السفسطائي رغم نسبيته و تغيّره هو **تصور حسي جزئي** و هو بحسب سقراط لا يرتقي إلى مستوى الكليات المطلقة [8]، بمعنى أنه تصور مرتبط دائما بعالَم الموجودات الطبيعية و إلا فَقَد حقيقته حسبهم و اندرج في عِداد الوهْميات و هذا وفْق رؤيتهم و مذهبهم.

أمّا **جورجياس** Gorgias (483- 376 ق.م.) فقد عُرف بقوة البلاغة ، حيث ذكره أفلاطون في إحدى محاوراته الموسومة باسم (**جورجياس**) ، و هذا لمقدرته الفائقة على الإجابة على كل سؤال يطرح عليه ، لقد كانت له ميول نحوَ علوم الطبيعة فكتب مؤلفا في" **البصريات**" ، لكنه و تحت تأثير جدل المدرسة **الإيلية** ساوره الشك في العلوم الأيونية المتجهة نحو الطبيعيات ، و بذلك برزت نزعته

الفلسفية المشككة في الوجود من خلال مؤلفه "اللاوجود" التي ارتسمت معالمها حول النقاط التالية:

- لا يوجد شيء على الإطلاق (عدَمية ممدودة).
- استحالة الوصول إلى المعرفة (لا وجود للتصورات و لا للتصديقات).
- عدم إمكانية نقل المعرفة و تواصلها ،لأن اللغة تواضعية تَحَكُمية بين الناس ، فلا ضمان لنقلها بين الناس بحقيقتها ، فلكل فرد مقاصده من كل تصور أو قضية يلفظها.[9]

و هكذا ينتهي **جورجياس** إلى نتيجة أكثر جدلا و غزارة و عُمْقا في فلسفة و في توجه المذهب السفسطائي و هي على العكس- بالمقارنة مع **بروتاغوراس** - **و هي** أن لا أحد على صواب .

لقد كانت النزعة الشكّية السفسطائية انعكاسا لأثر الفلسفات اليونانية السابقة، خاصة أفكار **هيراقليطس** و **بارمنيدس** ، شكية متجهة نحو معرفة العالَم الخارجي ، و شكية أخرى حول وحدة المعرفة ، فكانت السفسطائية بالفعل نقطة فاصلة و مخلخلة للأسس و البنى و للتقاليد العلمية و المنطقية اليونانية المنظَّمة المعروفة بنظام **اللوغوس** و **الكسموس** ، فالقول بأنّ كل الأحكام و كل التصورات صحيحة و أن كل التصورات أيضا هي نسبية و في نفس الوقت ، هو قول و ضَرْبٌ صارخ **لهوية** الحدود و جوهر التصورات القائمة على مبدأ الهوية و عدم التناقض ، و مخالفة أيضا **للمنطق ثنائي القيمة** الذي يقوم على الصدق أو الكذب و الذي

يمنع الجمع بين النقيضين و الذي يمنع وجود التصور الوسطle tiers-exclus ، كما أنه يخالف قواعد التعريف ، فالسفسطائيون بهذا المعنى يستبعدون " مبدأ التناقض" حتى كإمكان [10] ، فلا وجود عندهم للصيغ المنطقية الخاصة بالحُكْم ، لأن التصورات و أحكام الناس كلها شخصية ، فهي تصورات تتصف بالذاتية فقط و تُقصي الوجود الطبيعي الحقيقي و جواهره الثابتة و تعتني فقط بأعراضه Accidents المتبدلة و بالتالي لا شيء ثابت عندهم ، فلا وجود للتعريف و لا وجود للتصور الثابت و عليه يستحيل الحكم =jugement و في هذا نفي لأفعال العقل الأولى و نفي أيضا لأولى موضوعات المنطق.

لكن رغم كل هذه الانتقادات ، لعبت السفسطائية دورا معرفيا آخر يتوجه نحو تأسيس النظرة الثنائية بين العالَم المحسوس و الذات العارفة ، و بجدلها (المُموّه و هذا حسب خصومها) قدّمت السفسطائية للفلسفة عُمُومًا و للمنطق خصوصا مادة سيكون لها الأثر البالغ و الإيجابي في الفلاسفة اليونان اللاحقين عليها مثل سقراط و أفلاطون و حتى أرسطو ، حيث مهّدت لهم الطريق نحو تأسيس نظرية القياس من خلال أساليب الخطابة ، التي كانت تتسلسل من خلال مادة القياس و تضمنت الإعداد لنظرية التصور و قواعد التعريف و ضبط التصورات و حدودها ، ما دامت كل الحدود عند السفسطائية متغيرة و نسبية ، و كل التصورات هي من تحديد الإنسان الفرد ، و بذلك مهَّدت لمباحث منطقية أخرى مرتبطة بالتصورات و الاستدلالات مثل مبحث المغالطات و الجدل المموّه الذي تفطن إليه

أرسطو فيما بَعد في نظرية البرهان الهادفة إلى تشكيل العلْم (مثل كتاب الجدل و كتاب الأغاليط).

لقد كانت السفسطائية سبّاقة في نظرية المعرفة الإغريقية ، فهي تمثل نقطة البداية إذ حوّلت مجال النظر من العالَم الخارجي كما عند المدارس الأيونية و الفيثاغورية و الإيلية إلى الاهتمام بالعالَم الداخلي حيث كانت البداية بهذا الاهتمام عند **بروتاغوراس** في كتابه " **الحقيقية** " و بذلك تكون السفسطائية شقت طريقا آخر في نظرية المعرفة اليونانية ، بحيث نقلت مشكلة معيار و موضوع المعرفة من الوجود الطبيعي كما هو عند المدارس الطبيعية إلى الإنسان ذاته ، بحيث كانت أسئلتهم الخطابية تتمحور حول :

ماذا نعرف؟ و ما هو مقياس هذه المعرفة ؟

في الأخير لا يجب أن ننظر إلى السفسطائية نظرة سلبية نمطية شاملة كما تنقلها عنهم بعض الكتابات في تاريخ الفلسفة ، بل إن الأمر يتعدى ذلك حين نضع السفسطائية في الميزان التاريخي و المعرفي المُنْصف و الحقيقي ، هذا الميزان الذي ينظر إلى الكفة الأخرى للموازنة التي تَحمل ثقل المعرفة السفسطائية ، و أدواتها و موضوعاتها و مناهجها و آفاقها العامة.

لقد ساهم السفسطائيون في إعداد منطق أرسطو لاحقا ، و إن أحدثوا في حياة الأثينيين من المشاكل أكثر مما قدّموه من الحلول ، فلأن الفلسفة هي أيضا طرح للمشاكل أو هي المَشْكلة la problématisation بعينها ، و عليه لا يجب أن يُستهان بالدور الذي ساهموا به في مسار الفكر الإغريقي برمته ، إن السفسطائية خطوة

جديدة و هامة ، هي التي نقلت الفلسفة اليونانية من السطحية إلى العمق ، و من البساطة إلى التعقيد ، و من محيط الدائرة إلى مركزها ، فالسفسطائية فلسفة إيجابية بنّاءة ، إنها ثورة على السلبية و طريقة التفكير الساذج [11]، حيث مهّدت الطريق نحو منطق لاحق يُحدّد التصورات و يُقَعّد التعريف و يؤسس للاستدلال و القياس ، و يضبط الحوار و الخطابة.

إن الجدل السفسطائي كان يدور حول تحديد معاني التصورات أو حدّها(أي تعريفها) ، فعلى سبيل المثال كان يطرح السؤال الخطابي عندهم تساؤلات حول ما هي " الشجاعة " أو ما هي " العدالة " ؟ و هذا تكون هذه الحدود محور النقاش الجدالي ، أي عملية فلسفية تدور حول مما ينتج عنه حوار تسلسلي يمثل أحكاما متعددة و هي بمثابة مقدمات القياس لتتحول النهاية إلى ما يشبه الاتفاق ، لأن السفسطائية لا ترى في الأمر أي مجال للبحث عن أرضية اتفاق حول معنى ذلك التصور ، و هنا نكون أمام مجال لغوي بحت يتصل بنظرية الدال و المدلول و نظرية المواضعات اللغوية و اصطلاحاتها في العرف الإغريقي و أمام قوة البيان اللغوي خاصة منه اللغة اليونانية و هو مجال المناورات اللغوية السفسطائية بامتياز ، و في كل الحالات قد تؤول المحاورة إلى تحديد تعريف لذلك التصور هو بمثابة الحكم ، و من نلاحظ التشابك المعرفي في المواد المنطقية التي تقدمها الجدالات السفسطائية كالتصور و الاستدلال و البرهنة ثم الحكم و أيضا التعريف للتصور و هو منطلق و مآل الخطابة السفسطائية .

و يَغلِبُ على الظن أن نشأة المنطق نفسه مرتبطة بالنحو ، فقد بدأت البذور الأولى للمنطق عند اليونان في أبحاث السفسطائية الخاصة باللغة و الخطابة و النحو بوجه أخص .إذ هم أرجعوا التصور إلى اللفظ ، مما يسَّر لهم أن يجعلوا من الجدل و سيلة للانتصار على الخصم ، و من الخطابة العلم الأول . و القول الخطابي عندهم لا يقصد منه حسن الكلام فحسب، و إنما هو الحقيقة الجديدة التي قالوا بها نسبية في مقابل الحقيقة المطلقة التي لم يعترفوا بها، و لم يكن إيمانهم بقوة الكلام إلا إيمانهم بقوة الفكر ، ففن الإقناع هو بعينه فن التفكير،أي إن السفسطائية قد بحثت في اللغة فأداها هذا البحث إلى المنطق "[12].

الهوامش:

[1]- فريدريك كوبلستون، تاريخ الفلسفة (المجلد الأول: اليونان و روما) ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، المجلس الأعلى للثقافة المصري ، القاهرة ، ط1 ، 2002، ص135.

*- كان اسم " **سوفيسطوس** " يدل في الأصل على المعلّم في أي فرع كان من العلوم ، و بنوع خاص على مُعلّم البيان و الصناعات ، ثم لحقه التحقير في عهد سقراط و أفلاطون لأن السوفسطائيين كانوا مجادلين مغالطين و كانوا مُتّجرين بالعلم. يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، دار العالم العربي القاهرة ، ط2 ، 2012 ، ص67.

[2]- يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مرجع سابق ، ص67.

[3]- يوسف محمود ، المنطق الصوري ، التصورات و التصديقات ، دار الحكمة الدوحة ، ط1 ، 1994 ، ص213، نقلا عن ابن رشد ، نص تلخيص منطق أرسطو ، ج2، ص672.

[4]- محمد مرحبا عبد الرحمان ، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر، و منشورات عويدات بيروت- باريس ، ط3 ، 1983 ، ص89.

[5]- يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مرجع سابق ، ص86.

[6]- محمد عبد الرحمان مرحبا ، مع الفلسفة اليونانية ، منشورات عويدات بيروت – باريس ، ط3، 1988 ، ص101.

[7]- علي سامي النشار ، المنطق الصوري ، منذ أرسطو حتى عصورنا الحاضرة ، دار المعارف القاهرة ، ط3 ، 1965 ، ص191.

[8]- محمد عبد الرحمان مرحبا ، مع الفلسفة اليونانية ، مرجع سابق ، ص101.

[9]- يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة اليونانية ، مرجع سابق، ص70.

[10]- ألكسندر ماكوفلسكي ، تاريخ علم المنطق، ترجمة نديم علاء الدين و إبراهيم فتحي، دار الفارابي ، بيروت، ط1 ، 1987 ، ص55 .

[11]- محمد مرحبا عبد الرحمان ، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، مرجع سابق ، ص90

[12]- عبد الرحمان بدوي ، المنطق الصوري و الرياضي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط 3، 1968 ، ص 33.